

الأسلوب الإيقاعي في القرآن الكريم - دراسة تحليلية

د. رياض أحمد الندوي *

ملخص المقالة:

الأسلوب الصوتي أو الإيقاعي في القرآن الكريم هو الصوت الناتج عن براعة النظم والتأليف والترتيب الدقيق للكلام الجيد، فإذا توخينا تحديد ظاهرة الإيقاع فنجدها ماثورة في كل ظاهرة صوتية لا يمكن الفصل بينها وبين ظاهرة الإيقاع لأنها جزء لا يتجزأ منه فنجد مرتبطة بوحدة تركيبية وخاصة عندما يتعلق الأمر بالقرآن الكريم بالإضافة إلى عوامل خارج نطاق الكلام أو التأليف في حد ذاته وهي حسن الصوت القارئ وإجادته للتلاوة ودقتها من خلال مراعاة ضوابط التلاوة من مخارج الحروف، وهذا ما يجعل الصوت رقراق شجي يضيف جمالا وحسنا على الكلام ويربطه بالإحساس والشعور عند سماعه مما يحدث تأثيرا في نفوس سامعيه. وسأحاول في هذا المقال الوجيز أن ألقى الضوء الشامل على جوانب الصوتية القرآنية وأسلوبها الإيقاعي ومكانة اللغة العربية في ضوء تلازمها بالقرآن الكريم.

الكلمات الدلالية: الأسلوب، الإيقاع، البلاغة، القرآن الكريم.

الإيقاع في القرآن الكريم هو الصوت الناتج عن براعة النظم والتأليف والترتيب الدقيق للكلام، ويعد الصوت في القرآن الكريم من أهم العلوم التي اهتم بها العلماء، وبذلوا فيها قصارى جهودهم لإبراز مدى تفاعل الأصوات مع معانيها، وتناغم التراكيب حتى تجري على اللسان في انسجام دقيق واتساق عميق. والصوت حسب قول الجاحظ: "هو آلة اللفظ وهو جوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف ولن

* الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية، الكلية الحكومية، بدرواه.

تكون حركات اللسان لفظاً ولا كلاماً موزوناً ولا منثوراً إلا بظهور الصوت"^١. ومنه تظهر أهمية الصوت، والقرآن الكريم يُعدُّ أسى نموذج في البلاغة الصوتية، وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "زينوا القرآن بأصواتكم"^٢ والمقصود هو حسن الأداء والنطق الصحيح ومراعاة قواعد التلاوة وحسن التراكيب اللغوية التي تعطي إيقاعاً معيناً.

ومعلوم لدينا أن بلاغة القرآن لا تتجاوز عن الإطار الصوتي لجرسه وإيحائه وإيقاعه، وما يحدثه من إبراز للمعنى، وتسلسله ونظامه، وتحقق مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وهذا يكون أسلوب القرآن الكريم وما جاء عليه من انسجام واتساق وتوازن يحقق غاية التأثير والجذب لكل سامع له، والناس بطبعهم يستهويهم جمال الإيقاع وحسن الأداء.

وقد اتفق علماء اللغة القدامى والمحدثين على أن سرَّ أسلوب القرآن هو مخارج الحروف، وإليه أشار الرافعي بقوله: "إن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة هو بلاغة اللغة الطبيعية خلقت في نفس الإنسان"^٣، وتعرف البلاغة في علم اللغة الحديث بالأسلوبية الصوتية.

الإيقاع من أهم السمات في القرآن الكريم حيث تجتمع فيه كل عناصر النظم من انسجام واتساق واختيار للألفاظ ومناسبتها لذلك، وقد اختص علماء اللغة كلمة الإيقاع بالنظم والتأليف في مجال الفني والأدبي. والإيقاع كلمة استخدمها اللغويون لمعاني مختلفة ولذا لا نجد عندهم تعريفاً خاصاً موحداً وإنما يرتبط كل الارتباط بالانطباع الذي لا يتولد لدى المتلقي عند سماعه لأمر ما، فقد جاء هذا المعنى في

١- الجاحظ، البيان والتبيين، ج ١، ص ٧٩.

٢- البخاري، باب خلق أفعال العباد، ص ٦٨.

٣- مصطفى صادق الرافعي: إعجاز القرآن الكريم، دار الأرقم بن أبي الأرقم، ٢٠٠٤، ص ١٧٣.

لسان العرب لابن منظور بقوله: "ووقع منه الأمر موقعا مسنا أو سيئا"^١. وعرفه الفيروز آبادي بقوله: "والإيقاع إيقاع ألحان العناء، وهو أن يوقّع الألحان ويبينها"^٢. وقد عرفه الدكتور محمد غنيمي هلال بقوله: "الإيقاع يقصد به وحدة النغمة التي تتكرر على نحو ما في الكلام أو بيت، أي توالي الحركات والسكنات على منتظم في فقرتين أو أكثر من فقر الكلام"^٣. وكما يعرف الدكتور منير سلطان على أنه "حركات متساوية الأدوار تضبطها نسب زمانية محددة المقادير، على أصوات مترادفة في أزمنة تتوالى متساوية كل منها تسمى دوراً وهو جماعة نقرات تتخللها أزمنة محددة المقادير على نسب وأوضاع متساوية بأدوار متساوية"^٤ وهنا تعريفات كثيرة للإيقاع. وقد عرف بعضهم بأنه فن في إحداث إحساس مستحب بالإفادة من جرس وسواها من الوسائل الموسيقية الصائتة^٥.

إن قوانين الإيقاع سبعة، وهي^٦

(١) النظام	(٢) التغيير	(٣) التساوي	(٤) التوازي
(٥) التوازن	(٦) التلازم	(٧) التكرار	

إن اجتماع هذه القوانين السبعة مع بعضها البعض هو الذي يشكل الإيقاع، ولأن القرآن الكريم إعجاز بياني كامل فقد أثبتت الدراسات الحديثة أن القرآن يعتبر

١ - ابن منظور: لسان العرب، باب وقع، ص ٤٨٩٥.

٢ - الفيروز آبادي: قاموس المحيط، باب الواو، فصل وقع، ص ٧٧٣.

٣ - النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر، القاهرة ٢٠٠١م، ص ٤٣٥-٤٣٦.

٤ - منير سلطان: الإيقاع الصوتي في شعر شوقي الغنائي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط ١، ٢٠٠٠م، ص ١٢٢.

٥ - محمد بوزواي: قاموس مصطلحات الأدب، دار مدني، الجزائر، ٢٠٠٣م، ص ٥٣.

٦ - ينظر: محمد الحسنوي: الفاصلة في القرآن الكريم، فصل مطول بين فيه قوانين الإيقاع، دار عمار، ط ٢، عمان، ٢٠٠٠م، ص ١٧٥-٢٨٤.

منهلاً خصباً لمختلف الإيقاعات التي تؤثر النفس الإنسانية بحسب قول الخطابي: فرأى أنّ الإيقاع القرآني له صنيعة بالقلوب، وتأثيره في النفوس، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور وتقشعر منه الجلود، وتزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة^١. ومنه قوله تعالى "الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله"^٢.

فيتبدى لنا أنّ الإيقاع في القرآن الكريم يتماشى مع الأجواء الموجودة في النص القرآني مما يجعل سورة تتمايز بعضها عن بعض باختلاف جَوَ كل سورة والذي يتمثل فيه الأسلوب الفني المعجز، فلا بدّ أن يوجد فيه الإيقاع الموسيقي المعجز. الموسيقى تكمن في أسلوب القرآن الكريم وإن الإيقاع الموسيقي فيه يتألف من عدة عناصر.

١. من مخارج الحروف في الكلمة الواحدة.
٢. من تناسق الإيقاع بين الكلمات.
٣. من اتجاهات المد في الكلمات.
٤. من اتجاهات المد في نهاية الفاصلة المطرودة في البيات.
٥. من حروف الفاصلة ذاتها.^٣

وقد بيّن سيد قطب بعض الأسباب التي حملت على الانبهار من القرآن الكريم بإيقاعه وجماله اللفظي والمعنوي، فقال: "إن القرآن الكريم قد راع خيالهم بما فيه من تصوير بارع، وقد سجّر وجدانهم بما فيه من منطوق ساحر، وأخذ أسامعهم بما

١ - أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق، محمد خلف الله، ط٣، دار المعارف، مصر، ص ٧٠-٧١.

٢ - سورة الزمر، الآية ٢٣.

٣ - سيد قطب: في ظلال القرآن، ج٤، دار الشروق، القاهرة، ص ٩٦.

فيه من إيقاع جميل وتلك هي خصائص الشعر الأساسية، إذا نحن أغفلنا القافية والتفاعل"^١، على أن النسق القرآني قد جمع بين مزايا النثر والشعر جميعاً.

قال الزركشي: "يحكى أن أعرابياً سمع قارئاً يتلو قوله تعالى: "يأبها الناس انقلوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم"^٢ فقال في هذا القول: "يأبها الناس انقلوا ربكم زلزلة الساعة شيء عظيم" فقليل له: هذا القرآن وليس بشعر"^٣. إن السامع عند ما سمع هذا الكلام اعتقد لأول وهلة بأنه شعر فحذف "إن" ليستقيم الوزن حسبما يعلمه، فلو أخذ السامع بالإيقاع لعلم ذلك التجانس الدقيق بين الآية.

ولقد حاول الدكتور تمام حسان أن يبين معنى الإيقاع عن طريق شرح المقاطع اللغوية، فانتهى فيه إلى أن الإيقاع إما إيقاع في نطاق التوازن وإما في نطاق الموزون، والوزن في العربية إنما يكون للشعر والتوازن في الإيقاع للنثر والذي في القرآن متوازن لا موزون^٤. والإيقاع الصرفي لا يقتصر على إيقاع الفواصل في القرآن الكريم على توالي المنظومات الصوتية التي تشكل رؤوس الآي، وإنما يتحقق هذا الإيقاع من خلال تماثل الوزن الصرفي لكلمات الفواصل، إذ إن للوزن الصرفي أثراً إيقاعياً لا يقل أهمية عن تماثل أصوات الفواصل ومن ذلك قوله تعالى: "فيها سرر موفوعة. وأكواب موضوعة. ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة"^٥. نلاحظ في الآيات المذكورة الوزن الصرفي، وهذا ما نجده في المواضيع الكثيرة للقرآن الكريم.

فيتبدى لنا أن للوزن والتوازن يتعلق بالإيقاع كما عبر الدكتور تمام حسان بقوله: إن الوزن والتوازن كليهما من صور الإيقاع، وهما أيضاً من القيم الصوتية التي

١ - سيد قطب: التصوير الفني في القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، ص ٨٥.

٢ - سورة الحج، الآية ١.

٣ - الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج ٢، ص ١١٦.

٤ - تمام حسان: البيان في روائع القرآن، دراسة أسلوبية للنص القرآني، ص ٢٦٧-٢٦٨.

٥ - سورة الغاشية، رقم الآية، ١٣-١٤.

تصلح أن تكون مجالاً للفن والجمال، أما الوزن فحسبك أن تتأمل ما يمنحه من الجمال للشعر والموسيقى ونحوهما، وأما التوازن فيكفي أن تنصت إلى قارئ مجيد يرتل القرآن الكريم^١.

ولترتيل القرآن الكريم أهمية كبيرة في الإيقاع، وهو يعد من الإيقاع الصوتي، وله جاذبية خاصة تجتذب إليه الأفئدة، وتمنح أذنك من المتعة. ونفسك من الارتياح ما لا نجده سوى القرآن الكريم.

لقد رتّل الله القرآن ترتيلاً في قوله تعالى: "وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً"^٢، وأمر رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم أن يرتّل القرآن ترتيلاً في قوله تعالى: "أوزد عليه ورتّل القرآن ترتيلاً"^٣. الترتيل نوع من الإيقاع من ناحية الأداء والقراءة والانسجام والتناسق فاذا اجتمع الإيقاع الصوتي لم يكن للأذن إلا أن تنصت وتستمتع بالجمال، والله تعالى إذ يقول لعباده المؤمنين في قوله: "وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون"^٤. بالإضافة إلى هذا الكمّ الهائل من الكلام عن الإيقاع بوجوده في معظم الظواهر الصوتية، وللإيقاع القرآني عدة أقسام، منها:

(١) إيقاع التنغيم (٢) إيقاع الصيغ (٣) إيقاع النظم.

ومما لا شك فيه أن القرآن يتميز من حيث جمال الإيقاع والجاذبية ما يؤثر في السامع أكثر من غيره من شعر أو نثر فيجعله يتفاعل وينشط ويهتز ويخشع، وكثيراً ما يبدل رأيه ويتجه صوب القرآن الكريم. وهذا النوع من الإيقاع ينقسم إلى قسمين: الأول: الجمال التوقيعي. والثاني: الجمال التنسيقي. أما الجمال التوقيعي فيحدث عند

١ - تمام حسان: البيان في روائع القرآن، دراسة أسلوبية للنص القرآني، ص ٢٧٠.

٢ - سورة الفرقان، الآية ٣٢.

٣ - ثورة المزمّل، الآية ٤.

٤ - سورة الأعراف، الآية ٢٠٤.

سماعك للقارئ الموجود يقرأ القرآن، ويرتله ترتيلاً جميلاً، تسمع حركات حروفه وسكناته ومدّاته وغنّاته فتجد في نفسك راحة وامتعة. وتلدّ لذة غير عادية وهذا ما نجده في كلام آخر. وأما الجمال التنسيقي فأنت تسمع للمرتل فإذا ما اقتربت بأذنك قليلاً قليلاً فطرقت سمعك جواهر حروفه، خارجة من مخارجها فتحسّ لذة أخرى في نظم الحروف...^١، وهذا ما يشكل إيقاعاً جميلاً يتناسب الجو الذي وردت فيه كل سورة من سور القرآن أو آية من آياته ومن أمثلة ذلك سور كثيرة في القرآن الكريم كما جاء في سورة العاديات في قوله تعالى: "والعاديات ضبحاً. فالموريات قدحاً. فالمغيرات صبحاً. فأثرن به نقعاً. فوسطن به جمعاً"^٢.

والإيقاع في القرآن الكريم يختلف على الإيقاع في غيره من الكلام سواء كان نثراً أو شعراً، كما أنه يتعدد ويتنوع من سورة إلى أخرى، وكغيره من سمات التعبير القرآني يفترق الإيقاع في التنزيل الحكيم، وهذا تبعاً لنظام الفواصل والقوافي في السورة الواحدة. وحتى يكون متناسقاً ومتناسباً مع الجو العام الذي جاءت في سياقه السور والآيات، فنجد من ذلك ما هو سريع يأتي فيه الإيقاع سريعاً وقويماً، وما بطيء وما هو طويل وما هو قصير.^٣ وهذا ما نجده في كثير من سور القرآن أي جمال الإيقاع المتميز بالتناسق والتناسب مع أحداث كل آية من آياتها، وهذا ناتج عن حسن اختيار الألفاظ، وإحكام صياغتها وروعة الصورة التي يشكلها ملاءمة اللفظ مع النسق الذي ترد فيه كل سورة وآية من الذكر الحكيم.

ومن ذلك الإيقاع المليئ بالسماحة والمودة والتلطف ببناء نوح قومه ونسبتهم إليه ونسبه إليهم في قوله تعالى: "قال يا قوم أرأيتم إن كنتُ على بينة من ربّي وآتاني

١ - عبد الفتاح الخالدي: إعجاز القرآن البياني، ص ١٣٥.

٢ - سورة العاديات، رقم الآية، ٥-١.

٣ - صلاح الخالدي: نظرية التصوير الفني عند السيد قطب، ص ٦٩-٧٢.

رحمة من عنده فعمّيت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون"^١. ومن ذلك أيضاً الإيقاع المليء بالخشوع والتذلل الذي يحمل في طياته الهدوء والتلطف مما يوافق الدعاء الذي جاء في صيغته ينسجم مع المظهر الذي وردت فيه الآية في قوله تعالى: "ونادى نوح ربّه فقال ربّ إنّ ابني من أهلي وإنّ وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين"^٢. وهنا النداء يحمل في طياته الإيقاع الهادئ الرتيب الحركات، رفيق الإحساس، الشجي العاطفي الإيقاع الذي يلائم تذلل نوح عليه السلام إلى ربّه لإنقاذ ابنه من الغرق والهلاك، وهذا ما يميّز عاطفة الأبوة والفترة البشرية.

ومن الإيقاع ما اتسع كثيراً ليستوعب مساحة الحدث هذا في قوله تعالى: "وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائمين"^٣، وقوله تعالى: "ولما جاء أمرنا نجّينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جائمين"^٤.

ومن ألوان الإيقاع ما يتميز بالسرعة والحركة، ومثال هذا النوع من الإيقاع الذي يصحب صورة ما أصاب قوم لوط من دماءٍ وهلاكٍ، والذي بدا ماثلاً في قوله تعالى: "فلما جاء أمرنا جعلنا عالمها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد"^٥، والمتتبع لحركات الآيتين يسمع الإيقاع السريع المتلاحق.

ومن الإيقاع ما يصحبه الترويع والخوف، والفرع والهول، وذلك في الآيات التي

١ - سورة هود، الآية ٢٨.

٢ - سورة هود، الآية ٤٥.

٣ - سورة هود، الآية ٦٩.

٤ - سورة هود، الآية ٩٤.

٥ - سورة هود، الآية ٨٢-٨٣.

تناولت يوم القيامة. ومن الإيقاع ما يغلب عليه الطمأنينة والثبات، وتسيطر عليه
السكينة والهدوء، وتبدو عليه ملامح الفرح والسرور.
وفي الأخير يحلو بنا أن نقول إنّ مدار الإعجاز القرآني هي الأصوات المتجانسة
المتناسقة في الإيقاع والذي يبرز من خلاله تأثير هذا الكلام الجميل، وكلما زاد تحسين
الصوت كان أكثر إيقاعاً في نفوس سامعيه، ومحل هذا هو جمال لغة القرآن الكريم
وطبيعة الصوت الذي يزدان بحسن القراءة على لسان من أتى صوتاً جميلاً. فالصوت
الرقراق الجميل الرقيق يظهر اللغة الجميلة المعجزة في التركيب والتأليف والإيقاع في
كتاب الله عز وجلّ.

الدراسة التاريخية لانحطاط العلوم الإسلامية

د. محمود عالم الصديقي*

مقدمة المقال:

إن الإسلام دين علم وعقل. فإن الإسلام هو الذي منح العقل حرية تمام الحرية، ودعاه إلى النظر في الغايات والبحث عن تعاقد الأسباب والمسببات وإمعان النظر في أغاز الحياة، والتفكير في مصيرها وفي خالقها. وأنى على التقليد الأعمى وحمل عليه حملة عنيفة وصاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته. فالإسلام هو الذي رفع مكانة العلم والعلماء، وجعل لأتباعه تلقى العلوم لازماً وملزماً، وشجعهم على تلقى العلوم على اختلاف أنواعها، وأطلق العنان للعقل في البحث والتفكير، وخاطب العقل وطالبه بإمعان النظر في الكون من النظام والترتيب وتعاقد الأسباب والمسببات، واستنهض الفكر ليصل بذلك إلى اليقين لصحة ما ادعاه ودعا إليه. فلم يطالب الإسلام بالإيمان بالله وبرسوله واليوم الآخر إلا بعد تقديم الدلائل والبراهين على ذلك. فأخى الإسلام بين الدين والعلم أول مرة، وقرر أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل. فبدأ العقل يؤدي وظيفته بحرية كاملة حتى تطورت العلوم ولا سيما العلوم الإسلامية تطوراً بالغاً.

أسباب تطور العلوم الإسلامية

إن العقل الإسلامي عندما لاحظ أن المسائل الجديدة تتوارد على المملكة الإسلامية، فبدأ يفكر في حل هذه المسائل، وجعل يستنبط المسائل من القرآن والحديث، ويجتهد في معرفة حكمها في مسائل أو حوادث مماثلة وقعت في عصر الرسول أو جاء ذكرها في القرآن، فيطبق حكمها على مثلاتها، هكذا تطور الفقه الإسلامي. وكذلك عندما واجه العقل الإسلامي في فهم الآيات القرآنية، قام بتفسيرها،

* الأستاذ المساعد في قسم اللغة العربية وآدابها، حرم كارغل التابع لجامعة كشمير